

موضوعات شتى

الشرق والغرب

بقلم الكاتب الاجتماعي غويلمو فريرو

« تعريب الحقوق »

انعود مرة ثانية الى الشرق لنفث فيه عن طريق خلاصنا بين منرجاته ومنعطفاته .
انعود الغرب الذي بخر بعلمه ويزدهي بغناه ويتأهل بثقته للاذعان لاساتذة
المدرسة القديمة كما يفعل التلميذ الوديع .

لقد تعلم الغرب في تلك المدرسة قبل بضعة قرون سداد الرأي واحكام الفكر
فلاغرو اذا تزايدت اليوم الكتب التي تُبحث عن موضوعات الشرق وانتشرت بين
ايدي المطالعين في اوربا واميركا .

ومما بلغت الانظار كثرة عدد السائحين في الآونة الاخيرة في ربوع الشرق
القريب بقصد البحث والتنقيب والزحمة . وظهور فئة من المستشرقين في المانيا
لاعمل لهم سوى بث الافكار للرجوع الى عهد الحكمة الشرقية التي يقنون عنها
انها اصبحت امل الغرب الوحيد بعد اختلال رفاقه الحيوية . اما في بريطانيا فقد
انتشرت ايضا بين طبقات الشعب الانكوسكسو في دعاية دينية عليها مسحة هندية
فأغماز اليها جم غفير من الناس وصار غاندي وتاغور موضع اهتمام الجميع ومدعاة
لاعجاب البيئات المتعلمة والاوساط التي ترمي الى مبادي اقرار السلام العالمي في
نصابه .

ولا ازال اذكر مصادفه شاعر الهند الاكبر (رابندرانات تاغور) عندما ام ايطاليا
في الربيع الماضي ، من الحفاوة والاکرام والتطال الى معرفته مما اخاف حكومة الفاشستي
وجعلها ترغب اليه بالعدول عن سياحته وبقائه عند المرحلة الاولى منها اى في مدينة
ميلانو . ولا اعلم ما هو مبلغ اهتمام رجال العلم وجماعة المفكرين في فرنسا بهذا الامر

وكذلك فانه من الواضح باجلى بيان ان وزير المالية لا يملك اصدار الاوامر الادارية بشراء ارض مملوكة للغير او باستئجارها من غير رضاه مالكةا فليس له كذلك ان يمدد امره الاداري بالغاء عقد مبرور بينه وبين احد الافراد لان الحالتين سيان في وجود حق الغير ووجوب احترامه حتي يتنازل صاحبه عنه او يحكم القضاء فيه ..

وحيث انه تبين من كل ذلك ان قرار وزير المالية بالغاء عقد الاستئجار المحرر بين الحكومة وبين النادي السعودي والاستيلاء بالطرق الادارية على الاماكن الموهجرة انما هو اعتداء منه على الحق وعلى سلطان القضاء

وحيث ان مبدأ فصل السلطات مبدأ مقرر في الدستور المصري وهذا المبدأ يقتضي ان لا تمتددي السلطة التنفيذية على اختصاص السلطة القضائية مهما كانت الظروف والاحوال .

وحيث انه اذا جاز ان يميل غرور السلطات بالسلطة التنفيذية الى الاعتداء على اختصاصات القضاء فانه لن يجوز للمحاكم ان تمنح لهذا الاعتداء فتضييع بذلك حقوق العباد وضمانات الحرية .

وحيث انه لذلك كله يكون الحكم المستأنف في غير محله ويلعن الغاؤه

فلهذه الاسباب

وغيرها مما سيبيده وكيل المستأنف بالرافعة الشفوية وبالمذاكرات انا المحضر سالف الذكر اكلان دولة المعلن اليه بصفته المذكورة بالحضور امام حضرة قاضي التحضير بمحكمة مصر الابتدائية الاهلية بجلسته المتعقدة ببيتة مدنية استئنافية في يوم الاثنين سبعة عشر اغسطس سنة ١٩٢٥ الساعة ٨ اقرواكي صباحا حتى بعد تحضير الدعوى واحالتها على المرافعة يسمع دلائله بوجه السرعة وبصفته المذكورة الحكم بقول هذا الاستئناف شكلا وفي الموضوع بالغاء الحكم المستأنف الصادر من محكمة الموسكي الجزئية الاهلية في القضية نمرة ٨٠٠ سنة ١٩٢٥ ويرفض الدفع الذري والحكم باختصاص المحاكم الاهلية بنظر الدعوى وباعادة القضية لمحكمة اول درجة للفصل في موضوعها مع ازام دولة المعلن اليه بصفته بالمصاريف وانعاب المحاماة عن الدرجتين .

الاسيوية مصدر القول بالبوذية ومهد اللاهوت ومعمل الكتب المقدسة ووطن الديانات « النكوبية » اليهودية والارامانية والمزدكية والديانات الادبية الاجتماعية التي تمت على خطوات تلك وتابعتها وهي البوذية والمسيحية والاسلامية . لقد تعلم البشر على اختلاف عنامهم واجناسهم من الاسيويين طريقة الاهتمام والصراعة لله والتوجه الى السماء واشدوا عنهم كثيراً من المبادي الدينية وما اعطوهم مقابل ذلك شيئاً من هذا القبيل . واذا جاز لنا ان نسأل هل من المقدر لاسيا التأثير على الغرب من جديد صح ان نقول هل الغربيون مستعدون لقبول تلك التحليلات الدينية التي عثرت اسيا على شامض قوتها ومنعولها . لنأتي قبل حل هذه العقدة نظرة اعمالية على الحالة الدينية في اوروبا واسيا . ماهي الديانات التي تسيطر اليوم على عقول الاسيويين ؟ اولها الاسلامية وهي متغلغلة في شعوب الشرق الادنى وفي جزء من بلاد الهند الانكليزية وفي ناحية من اليابان . والثانية الديانة البوذية وهي كثيرة الانتشار في البلاد الهندية والصينية . ثم الكونفوشيوسية ، اذا صح ان نعت تلك المدرسة العملية ديانة ، وهي تبت في جزء من بلاد الصين تلك المبادي المنية على العقل والتفكير ويتنازل الناس هنالك تعاليمها تبعاً للتقاليد ويتغالون بها كالوصايا المقدسة ويضاف الى هذه الديانات الكبرى معتقدات وطنية اخرى كالمعتقد « الشنتاوي » وارا . فلسفية ودينية وسياسية نشأت في الهند بالاحتكاك مع التعاليم الغربية .

واذا نظرنا الى اوروبا رأيناها نصرانية على الاطلاق « اللهم الا اثر قليل من اليهود والمسلمين » وتدين بثلاث ملل هي الكاثوليكية والبروتستانية والارثوذكسية . وفي المواطن الكاثوليكية كما في غيرها لا يوجد اثر للايمان الصادق والمعقدة الثابتة ولا بين اقلية صغيرة تعيش بجانبها اكثرية ساسقة من ذوي العقيدة المترعزة والافكار الحرة . ايجوز لنا الاعتقاد ، والحالة هذه ، بان هؤلاء المفكرين الاحرار وضعاف الايمان يسمعون في المستقبل القريب بسر بان الدعاية الشرقية بينهم ؟ ثم لا يلبثوا ان يدخلوا دين الاسلام افواجا . ويعتقوا البوذية والكونفوشيوسية ويصيروا من عداد طلبة تاغور وغاندي ؟ ويقرأوا تلك المبادي . ويبرزوا بدافع

غير ان ذلك يتبين لنا من مطالعة الكراسة الشهيرة التي تطبع هنالك في قسمها المعلنون « دعاية الشرق » حيث ابدى كثيرون من الفلاسفة والكتبة ورواد المالك آرائهم حول حقيقة الدعاية الشرقية وفوائدها ومضارها مما يقع بمجموعه في مجلد ضخيم فيه مختلف النظريات التي تعد بمثابة مستندات ثبوتية بالنظر لاهمية الملحوظات وتباين الاستنتاجات . غير ان تعدد الآراء لا يوضح الموضوع ولا يبرهن الحقيقة الناصه بل خاف علينا الابواب ويقطع السبل .

« الشرق » ان كلمة الشرق لا تؤدي المعنى المقصود منها فهي مبهمه في ذاتها متناهية في اطلاقها والاولى بنا ان نستعيض عنها بكلمة اسيا « من ضمنها مصر » لقد كان للاسيويين تأثير كبير على الغربيين في الاجيال الماضية فشرخوا بينهم في فترات من التاريخ معالم الحضارة ومبادئ الفلسفة وشذوذ العلوم والفنون واصول التجهيز والصناعة والزراعة . وكان يوجد في اسيا لعهد الحكم الروماني . ارس زاهرة لعلم الطب . ووصلتنا منها الاعشاب والنوت والبرنقال وودود الحرير وعلمتنا بعد الاجتياح الجرمانى اساليب كل صناعة . واذا اردنا الاستطراد الي الامثلة وجدناها لا تقع تحت حصر فقد ذكر احد كتبة الصينيين المدعوا كوهونغ منغ ان فكرة التفاضل الجنسي المنتشرة الآن في اوربا ان هي الا من اصل صيني . وان الاوربيين عندما زاوروا البلاد الصينية في الجيل السابع عشر اقتبسوا عنها فكرة تكوين الهيئة الاجتماعية وجعلها على اساس جنسي دون المعتقد الديني . وقد كان للاقتداء بالصينيين ولتقليدهم شأن بين الطبقة الراقية المتنورة في اوربا فترزع ايمانها وبعثت في الجيل الثامن عشر الثورة الفرنسية من مرفدها . ولكن هذه التأثيرات وتلك المسكنة ما منحت اسيا الاتقونيا موقتاً لم يلبث ان اضمحل مع السنين وكما ان الاساليب الصناعية والعلوم والفنون ومجالي الحياة العممية قد انتقلت في مدة من الزمن من اسيا الى اوربا كذلك انتقلت مرة اخرى في فترة ثانية من اوربا الى اسيا بالمساو . وما نحن اولا متسلطين منذ قرن كامل على مقدرات الاسيويين الذين يقتسبون عنا العلوم والمعنات .

اما فيما يتعلق بالموضوعات الدينية فالامر كان على عكس ذلك لان البلاد

اذن نعيمنا المرجو وجنتنا المقودة التي لانستطيع دخولها ابداً . ومع كل فان الثروات الطائلة المتراكمة منذ قرونين لانتسبنا نعيمنا الذي سيظل ذكره في موضع القداسة منا . تضم البلاد الاسيوية الان رسوم تلك المدنات وبقايا ذلك الماضي المجيد مما لانظير له في اوربا فهناك الاخلاق السامية والتقاليد الموروثة ومختلف الفضائل وانواع التهذيب . ويهتم الغربيون اليوم ويفتشون في اسيا وفي اوربا على آثار الماضي ولا يتطلعون للمستقبل ذلك لانهم لا يقدررون ان يفصلوا عن الماضي الذي هدموه بايديهم وتركوه اثراً بعد عين .

كتب الكونت كايوزلنغ ، وهو ذلك الفيلسوف الالماني الشهير بانتقاده للمدنات الحديثة واحد محرري الكراسية الشهيرة ، يقول بعد ان تهم الحقيقة الاساسية اكثر من الجميع : لا يرمي الكتاب الغربيون عندما يضعون الشرق والغرب في كفتي ميزان لاجراً . المقابلة الى النظر الى المثال الاعلى للطرفين بل ينظرون الى المثال الكلاسيكي القديم ومثال العصور الوسطى ويعارضونها مع المثال الاعلى لوقتنا الحاضر . اي انهم يجعلون المقابلة بين فكرة التكامل وفكرة الارتقاء . يصعب علينا تحديد الميل الذي نشأ اليوم في اوربا واميركا للاسيو بين قاننا نعجز عن التدقيق فيه كما ان تاغور نفسه صعب عليه ادراكه عندما قارن في كتابه المسي (الوطنية) بين المذهب الروحاني وميل الشرق للتكامل الادبي ، وبين المذهب المادي الذي يقرر فكرة التكالب على الحياة والاندفاع في طلب الرزق وكسب المال بلا روية ولا عقل . قال : ان النزاع الذي نراه قائماً بين الشرق والغرب موجود بين الغربيين أنفسهم فليس هنالك اوروبا واحدة واميركا واحدة بل اورباوان واميركاوان تنافسان كلتاهما وتتنازعان مع بعضهما كما هي الحال بين الشرق والغرب . وان كل اوروبي واميركي مهما سمت درجته في العلوم هو في الوقت نفسه بنزعتين غربية وشرقية معاً . وقد روى لنا مارتلنغ ان العقل البشري منشطر الى شطرين شرقي وغربي وهذا الكلام يبين لنا تلك الحقيقة الكبرى وهي ان عصرنا الحاضر يجتاز مأساة مضاعفة فقد حاول ان يكتسح الارض ويستولي على كنوزها فاضطر الى هدم جزء من النفائس

الاخلاص كما فعل اول المنتصرين في عهد الرسل ؟ ان القول بهذه الفرضيات قبل وقوعها يضحكننا اذ يجب علينا الا نحسب مجرد حب الاطلاع على ادبيات الامم ميلا للاخذ بعقائدها . فقد اصبحت اوربا الان « واميركا ايضا » تستنفذ الكتب لان السبب الادبي تناوش شعوبها فصارت تطالع بلا انقطاع وتلتهم الاوراق المطبوعة وتحضر « الاكالات الادبية » الغربية لتستخلص لها منها غذاء عقليا متنوعا . وقد اصبحت الكتب التي تبحث عن الشرق وعن دياناته قوتهم اليومي الآن وفريستهم الوحيدة . بعد ان مر عليهم زمن « وذلك بعد الحرب العامة » ماوا فيه الى مطالعة كتب العبادات وقصص القديسين وكراريس المتصوفين فظن بعض المفكرين وارباب الرأي ان هذا الميل دليل قاطع على قرب نشوء الفكرة الدينية بينهم وظهورها في بيئاتهم فكانوا مخدوعين كما خدعت حكومة الفاشستي وتوهمت ان مدينة ميلانو نعرز المبادي « التاغورية » .

لا يجمع الغربيون في وقتنا الحاضر عن مطالعة جميع الكتب على اختلاف انواعها ولكنهم يعيشون عيشة من لم يطالع شيئا . لان تنوع القرائات يقلل من تأثيرها . وقد لا يكون للكتاب اثره الطيب في النفس الا اذا تميز على غيره من الكتب وانفرد بالهيمنة واصبحت له مكانته الخاصة كما هو الحال مع التوراة المقدسة . يمتاز هذا العصر على غيره بمطبوعاته التي تفوق الحصر والتي اصبحت برغم ذلك قليلة التأثير عديمة الجدوى ، وننفرد نحن بميلنا للمطالعة ارضا لاحكام الضرورة العمياء التي تكفيها كما تريد وليس ادعانا لجاذبية تلك الافكار الجميلة . واننا نجد الميل لامثال هذه المطالعات عقبا بذاته وبخاصة فيما يتعلق بالموضوعات الشرقية . ونحن نعجب بالاسبوبين كما يجب الامر كان باورويا ويزورونها ولكن حكمتهم لم تعلمنا شيئا . نعم اننا نعجب بهم لكوننا محتاجين الى انقاذ البقية الباقية من المذنيات القديمة التي هدمناها بايدينا على مدار الايام لنزيد في قوتنا وثروتنا تلك هي مأساة العالم الجديد واملنا انها لاتعاد مرة ثانية .

ترمي المذنيات القديمة الى الكمال ولا تفتش على السلطة والسيادة والتفوق فهي

ولكننا لو نظرنا الى مقدار ما حده من الخرافات وما ازاله من الاباطيل لنعنتاه بالقرن
الجنوبي الثرس ولكنه لم يكن لامدا ولا ذاك بل انه فتح ثغرة عظيمة في تاريخ
العالم كان من تأثيرها قطع الصلة بين القديم والحديث

وهكذا فان الاستيلاء على مجاهل الارض لا يمكن ان يكون سوى اداة قطع، او عمل
يتخذ له مكانا ثانويا بين مشاغل البشر . عندئذ نعود الانسانية بعد توسع نطاق
الارض الى الاكثار من ثروتها والتفتيش عن فكرة الكمال الاعلى التي هي من جملة
مصالح البشر ومقتضيات الحياة . ولقد شعر الذين عاشوا قبل قرن بهذه الضرورة
فاحترموا الماضي وانجذبوا برسومه وبقاياهم وصدق فيهم وفيما قول ما ترابنغ ان عقليتنا
منشطرة الى شطرين واننا نعيش في شبه منزل عظيم توجد فيه اعلام المذنبات القديمة
المشبعة بتلك المعة التي ستقع في المستقبل اي عند ما يتم افتتاح مجاهل الارض .
واننا نشغل جميعنا لاجل هذا المستقبل ونفكر فيه بالشعارين الشرقي والغربي
من دماغنا .

من اشعار الرب

قال القاضي عبد الوهاب :

مضى فصل العطر الى ارتواء	اذا استنقت البهار من الركابا
ومن يثني الاصاغر عن مراد	وقد جالس الاكابر في الزوابا
وان ترفع انضمام يومك	على الرفعاء من احدى البلايا
اذا استوت الاسافل والاعالي	نقد دابت منادمة المنايا

والاعلاق التي تركها لنا الاوائل كالدساتير والاخلاق والفضائل والفنون .

كان الانسان منذ خمسة اجيال فقط يجهل كنه الارض التي خصه الله بسكناء فلا بدري ملهية جسمها وشكلها ولا من يقطنها . وكانت فروع العائلة البشرية تعيش بجزوة بعيدة عن بعضها وكان ال كون العميق مخبأ على الافيانوسات العظيمة . ثم بدأ الاوريون حوالى الجيل الخامس عشر بارتداد البقاغ والتجوال حول الكرة الارضية وقطع البقاع فتعرف انزاد البشر على بعضهم . وقد تأسى الاوريون في طريق الاكتشاف والاختراع ببطء تام مدة ثلاثة قرون ولكنهم امرعوا السير في الجيل التاسع عشر ومنه وادنيا واكتسحت مدنيتهم العلمية الميكانيكية القارات الخمس بملفوظ السكك الحديدية وبالمرطبة النشراف .

يرجع الفضل اذن في توسيع نطاق العالم والاستيلاء على كنوزه الى جماعة من البشر المسمى الاوريون والاميركيون الذين اشتغلوا مدة قرن كامل بلا انقطاع في هذا السبيل اما الان فان اقواد العائلة البشرية باجمعها تشغل في هذا السبيل السبل التهورى والرقى وتفتح شياكل الارض والاطلاع على معالم الحياة ولا شك ان اسما مقضى عليها والحالة هذه بالمضي مع تيار هذه الزوابع الجارفة . واذ اردنا ان نستحصل على احسن النتائج في اكتشاف مجايل الارض وجب علينا بذل كثير من قوى الدماغ والقدرة بقوة الارادة وشدة المكافحة وفراط التخيل وعظيم الاشتغال بشكل لم يبق لنا نظيره .

ومما هو جري بالذكر ان المذنبات القديمة لم تعمل على تشجيع الفكر ليمكن من بذل قوى متكيفة واكتنفا بدلا من ذلك دأبت على تنقيته من الشوائب ليلبغ الادب والفن والسياسة وسبل الحياة اعلى ذروات الكمال .

وقد ساء به القرن التاسع عشر عدة مشاكل وعثر في عيشه على سملة مؤسرات سيادية ودينية تشادما التقاليد الموروثة التي تتطلبها احترامها والتشبع لها فلا امرته ووفقت شجر عثرة في سبيل مقاصده لم يحجم عن هدمها . وبينما كان يقوم بعمله الذي يشابه اعمال الجبايرة وجهت اليه انواع التعوت والتهيم فنقبه الناس بقرن الحماقة .

ماضي الامم يدلنا عليه . وليس مايقول به بعض كبار المفكرين من اجراء الحق المطلق والركون الى ارادة الشعوب الاآيات ذهبية لاتطبق البقاء على حقيقة الطبع الانساني بل على كنه الطبيعة نفسها . خذ مبدءاً تقرير المصير مثلاً . فقد اقامت هذه النظرية العالم واتعدته واستهوت معظم الشعوب بل كل العامة قبل يصلح تقرير المصير قاعدة للنظام ؟

ان بدأنا بتطبيقه في بلد فان تنتهي حتي يتناول كل اجزاء هذا البلد فيضيع كل ماعرفه العالم حتي الان من نظام ومن قوميته ايضاً . فهل كان من حسن الرأي ان يترك لولايات الجنوب في اميركا الشمالية حق تقرير مصيرها والاتصال عن ولايات الشمال ! اذن فلماذا كانت حرب ١٨٦٠ . وابن تكون الاممة الاميركية العظيمة الان ؟ بل ليت تقرير المصير هذا يلبث على حال . فالشعب الذي كان يطلب ان يقرر مصيره على هذا الشكل منذ عشر سنين تراه الان لو استغني لطلب مصيراً آخر . هذا شيء يكاد يلمس اليوم باليد فانهم يقولون في تاريخ حروب نابليون انه لو استغني مؤتمر فينا في سنة ١٩١٥ سكان الباليك في مايريدون لطلبت الاكثرية منهم الانضمام الى فرنسا ، ولكن اوربا كلها كانت تأبى ذلك عليهم وتأبى ان تزيد قوة فرنسا ولطلب عدد كبير منهم الالتحاق بهولندا ولكن الحرب التي وقعت بينهما سنة ١٨٣٠ لاعظم برهان على فساد ما قد كانت تكون عليه تلك الرغبة بل مالنا وللا مثال نتمسكها من بعيد . فلو اخذ رأي المصيريين الان في تقرير مصيرهم لما رأيت واحداً يقول بغير الاستقلال ولكن لو طرح هذا الاستفتاء على الجمهور قبل سنة ١٩١٤ لرأيت اكثرية نقول بعدم الانفصال عن دولة الخلافة اتصالاً تاماً وافية نقول ببقاء الاحتلال . فأبي الرأيين تأخذ وايهما الحق اليقين ؟ كلا ثم كلا . فالقومية تظهر وتؤخذ وتثبت بتهويء النفس لها وبالجهاد في سبيلها ومازاد على ذلك فليس من القومية في شيء .

وقيل ان تنتقل الى بحث آخر لابد لنا من كلمة نقولها عن العامل الاقتصادي في تكوين القومية . وكان الواجب علينا ان نأقي بها عند الكلام عن عوامل اللغوالدين والجنس والجغرافيا . فان لبعض الكتاب (ومنهم الذين انتقدوا معاهدة فرساي)